الخط الهامشي

■ ■ ■ الأقليات.. المشكلة والحل

obeikan.com

obeikan.com

الخط الهامشي

في إطار التكتيكات الاستعمارية للسيطرة على بلادنا حاولت قوى الاستعمار زرع مؤسسات وأحزاب وقوى ومثقفين تكون كلها في خدمة المشروع الاستعماري وتبرز له وتعمل كطابور خامس داخل بلادنا. وتبشر بالمشروع الثقافي والحضاري الغربي.

وبديهي أن عموم الأمة رفض هذا التوجه وظل متمسكًا بمشروعه الحضاري الإسلامي والكفاح ضد الاستعمار.

وبديهي أن هناك قطاعًا قد استجاب لهذا المخطط الاستعماري وعمل من خلاله إما كعميل مأجور أو اقتناعًا بالمشروع الحضاري الغربي وكفرًا بالمشروع الحضاري الإسلامي وظل هذا القطاع مجرد قطاع هامشي مرفوضا من الأمة عمومًا ومن الحركة الوطنية خصوصًا.

وكان هذا القطاع الهامشي موجودًا بين المسلمين والأقباط على حد سواء، وهكذا فإن هذا الخط ليس خاصًا بالأقباط ولكنه كان حالة موجودة في كل قطاعات الشعب بمسلميه وأقباطه.

ولكن المخطط الاستعماري كان يركز على الأقباط في هذا الصدد لعدة أسباب منها أنه يمكن إقناع الأقباط بالانحياز إلى المشروع الحضاري الأوروبي بدعوى اشتراكهم مع أوروبا في الدين المسيحي. ومنها أن النجاح في قطاع الأقباط يحقق تمزقًا في النسيج الوطني، ويجعل الحركة الوطنية الإسلامية المناهضة للاستعمار في حالة دفاع عن النفس وعرضة للاتهام بالتعصب والطائفية.

وكان الاستعمار يدرك خصوصية وتميز التراث الكنسي من عدة جوانب، أولاً أن للبابا بالتحديد وللإكليروس عمومًا في الكنيسة المصرية وضعًا متميزًا وخطيرًا وشديد التأثير على الشعب القبطي، بعكس المؤسسة الدينية الإسلامية التي لا تملك باحتكار التفسير الديني أو الخطاب الديني الإسلامي.

ويمكن لأي مسلم رفض أقوالها واتخاذ الموقف الذي يراه متسقًا مع عقائده الدينية دون أن يترتب على ذلك كفر أو حرمان.

كان المخطط الاستعماري يعمل من خلال هذه الحقيقة على السيطرة على الكنيسة القبطية فإذا ما تحقق له ذلك استطاع أن يسيطر على القرار القبطي عمومًا، وهكذا بدأت المحاولات الاستعمارية المستميتة لتحقيق هذا الأمر ولكن الوعي القبطي عمومًا والموقف الصحيح والتميز لرجال الدين القبطي في مصر قد وقفا عائقًا أمام ذلك.

وبسبب ذلك ظل النفوذ الاستعماري على الأقباط محصورًا في قطاع هامشي مرفوض من الكنيسة ومن الشعب القبطي على السواء.

ويأتي الجنرال يعقوب كنموذج مبكر ـ لهذا الخط الهامشي وهو رجل مأجور يعمل في خدمة أي سلطة فقد عمل مع المماليك ومع ظهور الحملة الفرنسية التحق الجنرال يعقوب بخدمتها وعمل في التجسس على حركة الثورة والكفاح الشعبي وقام بأبشع عمليات القهر والتعذيب وجمع الضرائب لصالح الفرنسيين.

وتحقيقًا للهدف الاستعماري الثابت في محاولة استقطاب الأقباط لصالح المشروع الحضاري الغربي قام الجنرال يعقوب بتشكيل ما يسمى بالفيلق القبطي ووضعه في خدمة جهاز القمع الفرنسي. وحاول أن يستدرج البطريرك القبطي لتأييد هذا المشروع.. إلا أن البطريرك القبطي ـ ومعه عموم الأقباط ـ رفض ذلك وأكد انحيازه إلى المشروع الحضاري للأمة ورفض المشروع الحضاري الأوروبي ويحكي د. وليم سليمان عن مشاحنات ومنازعات حدثت بين البطريرك والجنرال يعقوب، لدرجة أن الجنرال يعقوب اقتحم الكنيسة راكبًا جواده شاهرًا سلاحه.

على كل حال انتهى أمر الجنرال يعقوب وفيلقه القبطي ورحل مع الفرنسيين غير مأسوف عليه.

ومع دخول الاستعمار الإنجليزي مصر استطاع الإنجليز أن يجدوا يعقوبًا آخر من الأقباط ليعمل معهم، وفي خدمة مشروعهم الاستعماري ألا وهو بطرس غالي.

وعن طريق بطرس غالي استطاع الإنجليز أن يحصلوا على اتفاقية ١٨٩٩ التي أطلقت أيديهم في السودان على حساب مصر. وهو نفسه الذي رأس محكمة دنشواي وأنزل بها أشد العقاب والعذاب بأهالي دنشواي لإرضاء الإنجليز. كما أنه أعاد قانون المطبوعات لتقييد الصحافة الوطنية. وعمل على تمرير مشروع مد امتياز شركة قناة السويس أربعين عامًا أخرى، إلا أن الحركة الوطنية المصرية قررت اغتياله لوأد هذا المشروع المريب والضار بمصالح مصر ـ فقام إبراهيم الورداني باغتيال بطرس غالي سنة ١٩١٠ ويصف د. عصام ضياء الدين بطرس غالي بأنه عمل كجاسوس لصالح الإنجليز أثناء الثورة العرابية.

وفي إطار هذا الخط الهامشي أيضًا ظهر أمثال (فريد كامل) الذي حمل على التاريخ الإسلامي في مصر والهجوم على الجماعة الإسلامية وكذلك فعل (أخنوخ قانوس) الذي لم يكن قبطيا بل إنجليزيًا وكانت صحيفتا (الوطن) و (مصر) هما الصحيفتان اللتان حملتا أفكار التيار الهامشي للأقباط والمرتبط مع الاحتلال في تلك الفترة.

ويعلق الأستاذ (طارق البشري) على ذلك بقوله (إن صحيفة (الوطن) ساهمت في استثارة الشقاق الطائفي في مصر واصطناعه، كما أنها كانت تطالب بنفي محمد فريد من مصر، وكانت تعكس هنا هويتها الإنجليزية والمعارضة للحركة الوطنية).

ويضيف الأستاذ طارق أن صحيفة (مصر) عكست نفس الروح الموالية للاحتلال والمناهضة للحركة الوطنية المصرية، وأنها رحبت بتصريحات المستر (روزفلت) الذي اتهم فيها المصريين بالتوحش وبضرورة بقاء الاحتلال الإنجليزي لمصر).

بل ووصفته صحيفة (الوطن) بأنه منصف الأقلية من الأكثرية وكانت هذه الصحيفة تتعمد استفزاز الشعور الإسلامي دائمًا. فهي تشيد مثلاً باللورد (كتشنر)

واصفة إياه بأنه فاتح السودان ومذل المسلمين. كما أن الصحيفة كانت تناشد الأقباط الاستعانة بالدول الأوروبية ناصرة الإنسانية وأولهم الدولة الإنجليزية.

وتصاعدت تلك الحملة واشتدت أوزارها بعد أحداث ١٩١٠ واغتيال بطرس غالي. وذلك بتشجيع من الإنجليز وبدعم كامل منهم. وانتهى الأمر إلى عقد المؤتمر القبطي سنة ١٩١١ الذي طالب بما يسمى بحقوق الأقليات.

ويجب أن نلاحظ أن البطريرك القبطي وعموم الأقباط قد رفضوا المؤتمر القبطي، كما أدانوا السلوك الطائفي والمنحاز للإنجليز من قبل بعض الأقباط. بل وكتب الأقباط يصفون دعاة الفتنة بأنهم صنائع الاستعمار.

فقد كتب (سالم سيدهم) يتهم (أخنوخ فانوس) بالخيانة ويخاطبه قائلاً (هذا أحد صنائع الإنجليز في مصر والآلة التي يحركها المقطم)، وأضاف (أن إنجلترا تستخدم الخونة الذين لا ضمير لهم، لقتل الروح الوطنية وفي الهجوم على أقوى حزب مصري قام إلى الآن وهو الحزب الوطني).

وفي نفس الإطار وقف (ويصا واصف) و (مرقص حنا) من كبار أعلام القبط ضد هذا الشقاق، وكانوا من خاصة أنصار الحزب الوطني.

ويجب أن نلاحظ أيضًا أن هذا الشقاق الطائفي الذي افتعله أعوان الاحتلال من الأقباط وصل إلى أقصى حدوده من ١٩٠٨ إلى ١٩١١، وهي الفترة التي كان الحزب الوطني قد وصل إلى حالة من القوة والانتشار بحيث أصبح خطرًا على الوجود الإنجليزي في مصر. وإن الإنجليز لجأوا إلى لعبة التفرقة الطائفية وبث النعرات الطائفية عن طريق عملائها كنوع من تطويق الحزب الوطني وجعله في حالة دفاع، وذلك لمنعه من الأخذ بزمام المبادرة وتفجير الثورة الشاملة على الإنجليز في مصر.

ويستخلص الأستاذ (طارق البشري) من أحداث ١٩١١ عددًا من الحقائق الخطيرة قائلاً (والذي يظهر جليًا أن صحيفتي (مصر) و (الوطن) كانتا من أهم منابر الدعوة للمؤتمر القبطي، وأن (أخنوخ فانوس) كان من أهم زعماء هذه الدعوة. وأن

دعـاة المؤتمر من المسيـحيين المصريين كـانوا من وكـلاء القنصليـات الأجنبيـة وعلى علاقات وارتباطات اقتصادية بهذه القنصليات.

كمـا أن العائلات المرتبة بالإرسـاليات البروتستـانتينية مـثل عائلتي ويصا وخـياط كانوا من كبـار دعاة هذا المؤتمر، وإن إصرار دعاة المؤتمر على عقـده بأسيوط لا يرجع إلى أن نسبـة القبط في أسـيوط كانـت معقـلاً لحركة التـبشـير البروتسـتانتي ومـركزًا للإرساليات والمدارس البـروتستانتينيـة في مصر. وأنه عندما انعقـد رحبت به كنائس الإرساليـات وألقى تروتر القس الكندي في اجتـماع أعضـاء كنيسـة نهضة القـداسة خطبـة دعا فـيهـا إلى الصلاة من أجل نجـاح مؤتمر الأقـباط وأيد مطالب المسـيحـيين المصريين).

وفي إطار ذلك الخط الهامـشي يأتي أيضًا (سـلامة موسى) الذي دعـا إلى إحلال العامية محل الفصحى. كما دعا إلى الفرعونية، وكذلك دعا إلى الإلحاد واعترف بأنه كافر بالشرق مـؤمن بالغرب، واعتبر الرابطة الإسلامية وقـاحة ودعا إلى إلغاء الزواج الديني وتغيير النظام الأسري.

ومع كل هذا يعـود فيـتحـدث عن مطالب الأقـباط وينتـصـر لما يسمى باضطهـاد الأقباط على يد المسـلمين، أي أن (سلامة موسى) هنا يدعو إلى الـتخلي عن المشروع الثقافي والحضاري للأمة ـ ويدعو إلى الأخذ بالمشروع الحضاري الغربي وذلك خدمة لأهداف الاستعمار.

ومما يؤكد ضـلوعه في خدمـة الاستـعمار أنه وهو الملحـد يصبح فـجأة مسـيحـيًا متعصـبًا ليثير قضـايا الاضطهاد وحقوق الأقليات، وهو السلوك التقلـيدي للمدرسة الاستعمارية.

وفي نفس الإطار الهـامشي أيضًا. وعلى نفس الخط والسلـوك يأتي لويس عوض ليدعو إلى التخلي عن الثقافة الإسلامية ويدعو إلى الارتباط بثقافة الغرب ويدعو إلى إحلال الـعامـية محـل الفصـحى، بل أكثـر من هذا نراه يثيـر الشكوك حول التـاريخ الإسلامي عمومًا وقيم الحضارة الإسلامية خصوصًا.

بل ويتعمد تشويه حركة الكفاح الشعبي المصري ضد الاستعمار عن طريق إطلاق التهم والإساءة إلى سمعة الزعماء الوطنيين مثل الأفغاني والنديم وعرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد واتهم الحركة الوطنية المصرية بالتعصب الإسلامي والطائفية.

وأعجب من ذلك كله هو اعتباره للخائن العميل (الجنرال يعقوب) أنه رائد القومية المصرية!! وتبجحه بالقول بأن الحملة الفرنسية كانت حملة تنوير واستنارة وليست غزوًا استعماريًا.

obeikan.com